**الاسم: فريدة اللقب: كافي**

**الوظيفة: طالبة دكتوراه الرتبة: / المؤسسة: جامعة باجي مختار ـ عنابة ـ**

**الهاتف: 0664857430 البريد الالكتروني:doctora2012farida@yahoo.fr**

**عنوان المداخلة: مقاربة تشومسكي الفلسفية للحراك العربي**

**المحور: المجتمع العربي المعاصر، الراهن والمستقبل**

**مقدمة:**

لقد مثّل عام 2011 تحولا جوهريا في تاريخ الشعوب العربية، حيث لا يضاهيه أهمية في وقتنا الحاضر سوى أحداث الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية، فعبرت هذه الأحداث عن طموح هذه الشعوب في كسر قيود الاستبداد بعد فترة طويلة من الركود والهدوء الذي ميّز هذه الدول، وبالطبع كانت هذه الثورات التي أطلق عليها "ثورات الربيع العربي" محل اهتمام الباحثين والدارسين بشكل لافت.

ولا شك أن هذه الأحداث غير المتوقعة ستجلب انتباه مفكر مثل نعوم تشومسكي، الذي هو بالأساس عالم لغويات مشهور له وزنه في هذا الحقل، إلا أن هذا لم يمنعه من دخول عالم السياسة من بابه الأوسع، خاصة بعد بروزه كناشط سياسي مناوئ للسياسة الخارجية الأمريكية، فاهتم بالعديد من القضايا الفكرية المعقدة أهمها على الإطلاق العولمة والإرهاب والإعلام، والخطاب السياسي الأمريكي، ليصبح مفكرا عالميا لا يمكن القفز عن تجديداته الفكرية.

لم يكن الحراك العربي بمنأى عن اهتمام تشومسكي بل أخذ حيزا كبيرا من مؤلفاته الأخيرة، وليس هذا بالغريب عن تشومسكي الذي تربطه بالقضايا العربية علاقة وطيدة منذ أن كان طفلا صغيرا، ففكره السياسي يملك راهنية عربية، وغالبا ما كان يخاطب حاجات الشعوب العربية خاصة القضية الفلسطينية، ففي اغلب مؤلفاته اهتم بالدفاع عن الكرامة الإنسانية وحقوق الشعوب المستضعفة، ومن موقع الحاجة إلى قراءة جدية وعميقة لهذه الأحداث والتغيرات التي فرضت علينا مساءلة قضايا كالحرية الإنسانية وحدودها، والسلطة ومسألة الديمقراطية في البلاد العربية، ومن أجل الإحاطة الفكرية بها، كان من الأهمية اختيار المفكر الأمريكي تشومسكي ـ الذي كانت الحرية الإنسانية من المواضيع التي نالت حصة الأسد من مؤلفاته ـ موضوع للدراسة، فما هي قراءة تشومسكي لهذه التغيرات؟، وكيف نظر إلى مفهوم السلطة؟، وما هي الجذور الفلسفية لموقفه؟.

1**\_ في مفهوم الحراك العربي:**

لا شك أن الحديث عن ثورات الربيع العربي لا يمكن فصله عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها الشعوب العربية في هذه الدول، والقيود السياسية التي تفرضها السلطة، وهي ظروف يمكن اعتبارها دوافع لخروج الشعوب إلى الشارع مطالبة بنيل حريتها، وتحسين ظروفها، إنه توق للحرية لم يسبق له مثيل في هذه الدول، كما طالبت هذه الشعوب ايضا بإشراكها في العملية السياسية بفعالية من اجل مساهمتها في إدارة شؤونها، لكنها ليست تلك الإصلاحات السطحية التي تبديها الحكومات العربية بين فترة وأخرى، ، إنها "مطالبة بتغيير شامل وجذري يتعدى الإصلاحات الجزئية أو الشكلية لكي يطال الدساتير وأنظمة الحكم، بقدر ما يطال طريقة الدول في إدارة الشأن العام وكيفية ممارستها للسلطات، فضلا عن طريقة تعاطيها مع الحقوق والحريات"([[1]](#endnote-1))، فعبّرت هذه الثورات عن وحدة الوعي لدى الإنسان العربي بضرورة ممارسة حريتها بشكل فعلي، ففي هذه الدول كان الفساد المتفشي في الأسرة الحاكمة كبيرا مقابل طبقة فقيرة تشمل أغلب الشعب، فالثروة مركزة في يد القلة ممن هم في السلطة.

كان للثورة في تونس دوافع تكاد تكون اغلبها متعلقة بالوضع الاجتماعي للسكان حيث "اتسمت الثورة التونسية بالعفوية، وانتشرت من المناطق النائية الفقيرة، إلى أحياء الطبقة العاملة داخل المدن الرئيسية، لكن لم تحركها أي أجندة بخلاف الحنق على النظام الحاكم"([[2]](#endnote-2))، أي ان منطلق الحراك التونسي كان خال من أي توجه أيديولوجي، إلا ان الثورة قد خلّفت نماذج سياسية كالأصولية الإسلامية، حيث وجد الإسلاميون الفرصة للسيطرة على المشهد السياسي للثورة، وإذا اعتبرنا ان "النجاح السياسي لحركة إسلامية أو إخفاقها في بلد ما، رهين بمدى قدرة هذا التنظيم على التعبئة الاجتماعية، وهذه التعبئة تكون ناجحة إذا ما استطاعت أن تضم ثلاث فئات مختلفة هي، الشباب الحضري الفقير، والنخبة المثقفة المضادة، وأخيرا البورجوازية الورعة"([[3]](#endnote-3))، وبعد أن فشلت الحركات الاسلامية في تعبئة الجماهير وكسب تأييدها لها، لان حججها لم تكن قوية بما يكفي لاقناع مختلف شرائح المجتمع "فكل هذه الفئات معارضة للسلطة الحاكمة، لكن مصدر تذمرها يختلف من واحدة إلى أخرى، فكلها تدعو لدولة إسلامية ولتطبيق الشريعة، ولكن لكل واحدة فهمها الخاص لهاته الأهداف"([[4]](#endnote-4))، والجدير بالذكر أن الإسلام السياسي ليس بالجديد على هذه الدول، فقد أخفقت الحركات السلفية في وقت ماض في إقناع الجماهير، "بعد فوز الأحزاب الإسلامية بالانتخابات التشريعية في تونس ومصر والمغرب، الأمر الذي أثار القلق والمخاوف في الداخل وفي الخارج على ما طرحته الثورات العربية من الشعارات المتعلقة بالمجتمع المدني والحريات الديمقراطية"([[5]](#endnote-5))، فالثورة كانت تهدف إلى تحقيق أهداف تقدمية وليست رجعية، فهي مطالبة بممارسة الحريات والمشاركة في العمل السياسي، فهي ضد كل أنواع الإقصاء والتهميش التي تعاني منها هذه الشعوب، إضافة إلى أن المشكلة هي مشكلة دنيوية وليست دينية، "فالإسلاميون يدّعون بأنه لا إصلاح ولا نهوض إلا بالرجوع إلى السلف والتماهي مع الأصل أيا كان آية أم حديث أم سيرة، ولكن هناك فارق كبير بينهم وبين القدامى...من حيث القدرة والمبادرة والحيوية والفاعلية، إذ الأُول كانوا فاتحين، خلاقين، مؤسسين، عالمين، ليبراليين، فيما الخلف هم الآن مقلدون، جاهلون، محافظون، مدّعون، عاجزون"([[6]](#endnote-6))، والدليل على عجز الخطاب الإسلامي هو ما لحق الإسلام من تشويه جراء هذه الحركات الإسلامية المتشددة، حتى أصبحت وسائل الإعلام الغربية تستغل هذه الظروف لتلصق صفة الإرهاب بالسلام والمسلمين.

**2\_ قراءة تشومسكي للراهن العربي:**

ليس غريب على تشومسكي الاهتمام بدول العالم الثالث وقضايا حقوق الانسان، فلطالما كان مشجعا للحركات العمالية في مختلف دول العالم، فهو ليس منظرا وحسب، بل كان منخرطا في عدة نقابات وحركات سلمية حسب شهادة تشومسكي نفسه حيث يقول :"إني منخرط طوال فترة مديدة من عمري انخراطا وثيقا بالجماعات السلمية، في العمل المباشر وفي المقاومة، وفي مشاريع تربوية وتنظيمية. قضينا أياما في السجن. ومن غرائب الصدف أن المدة لم تطل إلى سنوات \_كما كان متوقعا وبواقعية\_ قبل ثلاثين سنة...فقد تبنى أصدقائي وزملائي من جماعة الكويكرز ممن يشاركوني إرادة تعطيل السلطة اللاشرعية شعار "قول الحق في وجه السلطان"، إني اختلف مع هذا الرأي بكل قواي. فهذا الجمهور <أهل السلطة> غير مناسب تماما، ولا يعدو الجهد المبذول في قول الحق له ان يكون شكلا من أشكال الإرضاء الذاتي. إنها مضيعة للوقت وسعي غير مجد ان نقول الحقيقة لهنري كيسنجر أو للمدراء التنفيذيين لشركة جنرال موتور زاو لغيرهم ممن يمارسون السلطة في المؤسسات القسرية، إنهم يعرفون سلفا وبدرجة كافية معظم الحقائق"([[7]](#endnote-7))، ومن هذا المنطلق اعتبر تشومسكي أن ما حدث في الدول العربية هو "رد فعل على السياسات الليبرالية الجديدة لمدة ثلاثين عاما مضت...ويعتبر رد فعل متأخرا للغاية فهذا تم تنفيذه بطرق مختلفة في دول متنوعة"[[8]](#endnote-8)، وقبل التطرق لمفهوم الليبرالية الجديدة، آثرنا ان نسوق كلمة موجزة عن الليبرالية، فالليبرالية Liberalism تعني "مذهب سياسي فلسفي يرى أن الإجماع الديني ليس شرطا لازما، ضروريا لتنظيم اجتماعي جيد، ويطالب بحرية الفكر لكل المواطنين"([[9]](#endnote-9))، أما في الاقتصاد فتعني "مذهب اقتصادي يرى أن الدولة لا ينبغي لها ان تتولى وظائف صناعية، ولا وظائف تجارية، وأنها لا يحق لها التدخل في العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الأفراد والطبقات أو الأمم...تتعارض مع الدولانية آو حتى بنحو أعم مع الاشتراكية"([[10]](#endnote-10))، أي ان الليبرالية في صورتها الكلاسيكية تركز على قيم الحرية، حرية الفكر، وحرية التعاملات الاقتصادية وعدم تدخل الدولة، وكانت الليبرالية "تالية في ظهورها على التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي بدأت في الظهور في أوروبا منذ القرن السادس عشر، تمثلت هذه التغيرات في ظهور طبقة جديدة هي البورجوازية، الطبقة المنشغلة بالتجارة والصناعة والأعمال المالية، أتت هذه الطبقة بأشكال جديدة من النشاط الاقتصادي غير الخاضعة للنظام الإقطاعي المعتمد على الملكية الزراعية"([[11]](#endnote-11))، فمهدت البورجوازية لظهور نظرة جديدة للحياة الاجتماعية التي يعيشها الإنسان في الدولة، "قدّمت الليبرالية تعريفات للفرد والحرية والعدالة، والحقيقة أنها لم تكن إلا انعكاس لاقتصاد السوق الرأسمالي، فالفرد هو الشخص الذي يتمتع بحرية إقامة علاقات مع غيره من أفراد المجتمع ويدخل معهم في تعاقدات...فالحرية هي حرية التملك، والمساواة، هي تساوي الأفراد في سعيهم نحو التملك"([[12]](#endnote-12))، وقد ارتبطت الليبرالية الكلاسيكية بالافكار التنويرية التي ركزت على حرية الفرد، وقيم التقدم، والمساواة بين الافراد.

أما الليبرالية الجديدة Newliberalism "هي النموذج السياسي الاقتصادي المعرِّف لزمننا، ويشير الى السياسات التي يسمح من خلالها لعدد قليل نسبيا من القوى الخاصة بالسيطرة قدر الامكان على الحياة الاجتماعية من اجل رفع فائدتها الشخصية الى الحدود العليا"([[13]](#endnote-13))، ولعل الحديث عن الليبرالية الجديدة لا يمكن فصله عن العولمة التي كانت من أهم مرتكزاتها السوق الحرة او المفتوحة، وكان مفهوم تشومسكي قريبا جدا من هذا التعريف للبرالية الجديدة، فهذا المصطلح "لم يكن معروفا على نطاق واسع ولا تتداوله الجماهير بصورة عامة، وخاصة في الولايات المتحدة، حيث كانت المبادرات الليبرالية الجديدة تُصَور كسياسات حرية سوق تشجع المشروع الخاص وخيار المستهلك، وتكافئ المسؤولية الشخصية والمشاريع الخاصة، وتحارب التدخل الحكومي وتعده غير كفء"([[14]](#endnote-14))، وقد استقبلت كل دول العالم سياسة السوق الحرة بصدر رحب، وداخل الإحاطة الفكرية لما يحدث في الدول العربية رأى تشومسكي أن "ما حدث في ميدان التحرير كان بالغ الأهمية، وذا أهمية تاريخية في حقيقة الامر، وقد حقق هدفا وهو القضاء على النظام الدكتاتوري...وكان هناك انجازات بالفعل، حيث أصبحت الصحافة أكثر حرية، وأصبح نشاط العمل اقل تقييدا"([[15]](#endnote-15))، فهذا الحراك قد مثل تطور ضخم بنظر تشومسكي، فهو حدث ذو اهمية تاريخية كبيرة، وهذه الشعوب قد خطب خطوة كبيرة نحو مزيد من الحرية والاستقلالية، "بمجرد اندماج حركة العمال في حركة 6 افريل ـ وهي حركة ميدان التحرير ـ أصبحت قوة ذات دلالة كبيرة...فحركات العمال قد تم تهميشها في الماضي، وان جزء من المهمة التي يتعين أداؤها هو إعادة حيوية حركة العمال، وفي تونس فقد نجحوا في التخلص من الدكتاتور، وفي إجراء انتخابات برلمانية"([[16]](#endnote-16))، ولهذه الدول تاريخ طويل من الحركات العمالية المناضلة لعقود طويلة،لكنها كانت تعاني من قمع السلطة لها، لكن مع إسقاط هذه الحكومات الاستبدادية تمكنت الشعوب من تحقيق انجازات لم تكن ممكنة في ظل الحكم الاستبدادي.

ويعتقد تشومسكي أن هذه التحولات السياسية على علاقة بالتغيرات الاقتصادية التي تحدث في العالم، فكما سبق وان ذكرنا انه قال بأن الثورات العربية هي رد فعل على السياسات الليبرالية الجديدة، إلا أن هذا المصطلح يعاني من الغموض حسب تشومسكي، حيث يقول :"يوحي مصطلح الليبرالية الجديدة بنسق من مبادئ جديدة، ومستندة إلى أفكار كلاسيكية في آن، ويبجل ادم سميث على انه القديس الراعي لها، ويعرف النسق المذهبي أيضا "بإجماع واشنطن" الذي يوحي بشيء ما عن هذا النظام العالمي"([[17]](#endnote-17))، وهذا هو الفرق بين الليبرالية الكلاسيكية التي قامت على الفرضيات المتعلقة بالأنوار، بينما تتميز الليبرالية الجديدة بهيمنة الولايات المتحدة حتى أن تشومسكي قد أطلق عليها "إجماع واشنطن"، "إن إجماع واشنطن الليبرالي الجديد هو مجموعة من المبادئ الخاصة بالسوق وضعتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، والمؤسسات المالية العالمية التي تهيمن عليها، وتقوم بتطبيق هذه المبادئ بطرق عدة على المجتمعات الأضعف"([[18]](#endnote-18))، وبما أن سيطرة الولايات المتحدة على الاقتصاد العالمي جعلت منها المستفيد الأول والوحيد من ثروات دول العالم الثالث، فإنها بطبيعة الحال ستقوم بحجب أية عملية محاولة لإسقاط الحكومات الموالية لها في الدول العربية، فحتى منظمة التجارة العالمية (الغات) كان هدفها الخفي هو الإبقاء على عالم الجنوب أكثر تخلفا بمعنى "خلق قطاع أصغر من أصحاب الامتيازات الكبيرة، والمستثمرين والمهنيين والإداريين...وستكون تلك الاتفاقية في صالحهم في الوقت الذي باقي فئات الشعب"([[19]](#endnote-19))، وقد ركز تشومسكي في أكثر من مناسبة على ان المشاريع التي يروج لها الغرب من خلال الخطاب السياسي هي في الواقع لا تمت بصلة الى معانيها الحقيقية، "ان استخدام كلمة "تجارة" مضلل لأنه استخدام تقليدي، إذ أن آخر الأرقام المتوفرة تبين أن حوالي 30ـ40% مما يسمى بالتجارة العالمية هي في الواقع عبارة عن تحويلات داخلية ضمن الشركة الواحدة"([[20]](#endnote-20))، ومع زيادة الهوة بين عالم في الشمال أكثر تقدما وأخر في الجنوب يزداد تخلفا، فإنه ما على الدول الضعيفة سوى الاستسلام لحتمية السوق الحرة أو المفتوحة، فلم يبق لها خيار أو إمكانية رفضها.

وهذا ما جعل تشومسكي يركز اهتمامه على ازدواجية المعايير في الخطاب السياسي الأمريكي، "فالحقيقة في صورتها السياسية، والتي يتمثلها الخطاب السياسي الأمريكي، الذي لا يبحث عن الحقيقة الماثلة في فكرة ما يمكن أن تكون مبدأ إنساني لعمل ناجح في المستقبل، بل يجعل من الفكرة النفعية ذاتها حقيقة يتم ترسيخها والترويج لها، ومن هذا المنطلق يعلن <فوكوياما> في مؤلفه <نهاية التاريخ> أي الانتصار الحاسم والنهائي للديمقراطية الليبرالية، إنه يؤكد نهاية التاريخ كحقيقة لا تقبل الشك، ومن ثم يقرر نهاية إنسانية الإنسان في تطلعه إلى التغيير الأفضل، وبدلا من ذلك عليه الاستسلام لحتمية الليبرالية الاقتصادية"([[21]](#endnote-21))، وقد اهتم تشومسكي في اغلب مؤلفاته في السياسة بالمصطلحات المراوغة التي يعج بها الخطاب السياسي الامريكي، فكم هي بعيدة المسافة بين تلك المصطلحات والممارسات السياسية للولايات المتحدة على ارض الواقع، فأصبح المصطلح في الخطاب السياسي يعاني عزلة او غربة عن معناه، فأصبح غير حيادي، وهذا ما يؤكد ازدواجية المعايير من جهة، كما يثبت البعد البراغماتي من جهة أخرى.

وبذلك فقد توقع تشومسكي بأن تكون "النتائج المتوقعة لانتصار القيم الأمريكية في منظمة التجارة العالمية هي التالية:

ـ أداة جديدة من أجل تدخل أمريكي واسع النطاق في الشؤون الداخلية للآخرين

ـ سيطرة الشركات المقيمة في الولايات المتحدة على قطاع كبير من الاقتصادات الأجنبية

ـ فوائد لقطاعات الأعمال والأثرياء

ـ أسلحة جديدة وقوية جدا ضد تهديد الديمقراطية"([[22]](#endnote-22))

لقد كرّست الرأسمالية طرق العبودية والتبعية للقوى العظمى، عن طريق السياسات المراوغة للدول الغربية، حيث كان "المبدأ الأساسي لسياسة النفط الأمريكية، كما أعلنتها إدارة <ولسون> وكما أعلنتها الإدارات اللاحقة بعد الحرب العالمية الثانية، أن الولايات المتحدة لابد وان تحتفظ بموقف سيطرة مطلق في نصف الكرة الغربي، مع الإصرار في نفس الوقت على مبدأ الباب المفتوح لإيجاد فرص متساوية للشركات الأمريكية في المناطق الجديدة، باختصار، ما لدينا نمنعه عن الآخرين، ونغلق الباب في وجوههم، وما ليس لدينا نطلبه من الآخرين من خلال فتح الباب بالقوة في ظل المنافسة الحرة، وبالمناسبة، هذا هو الأسلوب الذي تدار به سياسة التجارة الحرة والباب المفتوح"([[23]](#endnote-23))، لقد حققت سياسة السوق الحرة مزايا كثيرة للدول الغربية، بحيث غدت دول العالم الثالث سوق لترويج منتوجات الدول المتقدمة، ومنه أصبحت المهمة المنوطة بالدول المتخلفة هي توفير الرفاهية للدول الرأسمالية الغنية.

**3\_ الديمقراطية من منظور تشومسكي:**

لطالما كانت الديمقراطية حلم الشعوب على مرّ الزمن، فكانت البديل الذي لا يمكن التنازل عنه، غير ان هذا لا يعني عدم وجود حركات مضادة لها، فلا توجد الديمقراطية إلا بالنسبة للنظم الاستبدادية، أما في الدول العربية فقد أرادت وبعد فترة من الاستبداد أن تتحرر من القيود المفروضة عليها، فكانت المطالبة بالحرية والحياة الديمقراطية من الأسباب الجوهرية التي دفعت الجماهير للخروج إلى الشوارع، طمعا منها في تحقيق مشاركتها في إدارة شؤونها، حيث بدا هذا التحول الجوهري وكأنه عصر التنوير المتأخر بالنسبة للشعوب العربية، أو موجة ما بعد الحداثة التي شكلتها الثورة على الأنظمة السياسية المبجلة، ويقول تشومسكي :"نجحوا في الإطاحة بالحاكم المستبد المدعوم من الغرب، وامتدت تداعيات هذه الثورة إلى مصر، حيث أدت التظاهرات الضخمة إلى إسقاط شرطة الحاكم المستبد العنيفة"([[24]](#endnote-24))، فكان العمال المصريون يناضلون منذ وقت طويل لنيل حقوقهم الأساسية التي حرمهم إياها النظام الذي تدعمه الولايات المتحدة.

إن الدفاع عن الحرية الفردية كان ولا يزال الطابع المميز للفلسفة الأمريكية منذ بدايتها، فقد جاء في وثيقة الإعلان عن الاستقلال الأمريكي 1776 من أن "الناس قد خُلقوا متساوين، وإن الخالق منحهم حقوقا أصيلة لا يمكن التخلي عنها، ومن هذه الحقوق: حق الحياة والحرية والسعي وراء السعادة. ولقد أنشئت الحكومات من أجل نيل هذه الحقوق، فاستمدت قوتها من رضى المحكومين"([[25]](#endnote-25))، ولقد كان الساسة الأمريكيين الواحد تلو الأخر، لا تخلو خطاباتهم من التأكيد على نشر الديمقراطية في العالم، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وحقها الأساسي في الحرية، أما إذا تعلق الأمر بالدول العربية، فالأمر يختلف "تستمر واشنطن وحلفاؤها في التمسك بمبدأ أن الديمقراطية مقبولة ما دامت تتماشى مع أهدافها الإستراتيجية والاقتصادية، ولا بأس بهذه الديمقراطية في أرض العدو ( إلى حد ما ) ولكن لا نقبلها في أرضنا، إلا إذا كانت مروّضة"([[26]](#endnote-26))، لكن ما هي الديمقراطية المروضة؟، إنها الديمقراطية التي يتم تحقيقها حسب مدى خدمتها لاهداف الولايات المتحدة في أي دولة، والسجل التاريخي للولايات المتحدة يعج بتدخلاتها في الشؤون الداخلية لدول كثيرة في العالم، ولقد ذكر وليام بلوم تاريخ وجيز للتدخلات الامريكية في العالم من عام 1945 حتى اليوم، في عدة دول، كالصين، فرنسا، إيطاليا، كوريا التي وبعد الحرب العالمية الثانية، قمعت الولايات المتحدة المنظمات التقدمية الشعبية، أيضا ايران التي أطاحت برئيس وزرائها محمد مصدق من خلال عملية أمريكية بريطانية مشتركة، مع أن الأغلبية قد انتخبت مصدق، إلا أن الخطأ الذي ارتكبه هو عندما تصدر الحركة المطالبة بتأميم شركة نفط بريطانية، أيضا تدخلاتها في غواتيمالا عندما أطاح انقلاب من تنظيم وكالة الاستخبارات المركزية بحكومة يعقوب أربينز التقدمية والمنتخبة بالطريقة الديمقراطية([[27]](#endnote-27))، هذه هي الديمقراطية التي تريد فرضها الولايات المتحدة على الدول، إنها الديمقراطية المروضة كما يسميها تشومسكي.

وهناك منطق آخر للولايات المتحدة تستخدمه من اجل نشر ديمقراطيتها، "يكرر الناقدون النغمة عينها، وهي أن الخوف من الإسلام المتشدد يحتم (بتردد) فعليا معارضة الديمقراطية، قد يكون ذلك صحيحا، إلا أن طريقة الصياغة مضللة، لأن الخطر العام هو الاستقلال، ونشير إلى أن الولايات المتحدة وحلفاءها لطالما قدموا الدعم إلى دولة إسلامية متشددة في العالم العربي، في بعض الأحيان بغية تفادي خطر العلمانية الوطنية"([[28]](#endnote-28))، ولطالما عرفت سياسة الولايات المتحدة بالنفاق والرياء، و محاربة كل محاولة جادة في نشر الديمقراطية الحقة في الوطن العربي، "فالاصولية الاسلامية اليوم هي نتاج مباشر لسياسات أمريكية مباشرة جدا...مع اضافة شرط ان القومية العلمانية قد أضعفتها ودمرتها الولايات المتحدة بصفتها عدوها الرئيسي، ففي ستينيات القرن العشرين كان التيار السائد في العالم الإسلامي عامة، هو القومية العلمانية، وكذلك في العالم العربي، إذ كانت القومية العربية مجسدة في الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وقد حاربت الولايات المتحدة هذا النمط من القومية مستندة في ذلك إلى أكثر أنماط الأصولية الإسلامية رجعية تلك التي تنفذها وتروج لها المملكة العربية السعودية"([[29]](#endnote-29))، وتستخدم الولايات المتحدة الأصولية الإسلامية كأداة من اجل إضعاف القومية العلمانية أو أي نوع من حركات التقدم.

وبذلك لاحظ تشومسكي أن للديمقراطية تعريفين مختلفين "المفهوم الأول يعتبر أن المجتمع الديمقراطي هو المجتمع الذي يملك فيه العامة (الجمهور) الوسائل اللازمة للمشاركة الفعالة في إدارة شؤونهم، وان تكون وسائل الإعلام منفتحة وحرة...أما المفهوم الآخر فهو أن يمنع العامة من إدارة شؤونهم وكذا من إدارة وسائل الإعلام التي يجب أن تظل تحت السيطرة المتشددة"([[30]](#endnote-30))، وعلى الرغم من ان المفهوم الثاني قد يبدو غريبا، إلا انه المفهوم المعمول به اليوم، نظرا لوقوع وسائل الإعلام تحت سيطرة من يتولون مقاليد الحكم.

**4\_ مفهوم الطبيعة البشرية عند تشومسكي:**

أقرّ تشومسكي بأن كل البشر من طبيعة إنسانية واحدة "ولا يستطيع حتى نقاد ما بعد الحداثة المتطرفين القول جديا بعدم وجود الطبيعة البشرية، قد يناقشون بأن الصفات الدقيقة للطبيعة الإنسانية صعب تجسيدها ـ هذا صحيح بالتأكيد ـ لكن من المستحيل الجدال بشكل متماسك بعدم وجود الطبيعة البشرية الشاملة الجوهرية (الفطرية)"([[31]](#endnote-31))، على الرغم من أنه لا يمكن التحقق علميا من وجود هذه الطبيعة البشرية، إلا أنه لا يمكن الجزم بعدم وجودها،"إن آراء تشومسكي في السياسة تتوافق مع علم الطبيعة البشرية ... الذي يشير بوضوح إلى أن البشر تُتاح لهم في سنّ مبكرة المواد المفاهيمية التي يحتاجونها لفهم القضايا السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، ومن ثم صنع خياراتهم السياسية"([[32]](#endnote-32))، وبذلك نفى تشومسكي فكرة أن تكون القرارات السياسية حكرًا على طبقة بعينها، فكل البشر لديهم قدرات عقلية تؤهلهملاتخاذ قراراتهم.

ويعتقد تشومسكي أن جوهر الطبيعة البشرية هو الحرية Freedom حيث يقول: "كتب شيلنغ يقول: وُلد الإنسان للعمل وليس للتأمل، كما كتب: بداية ونهاية الفلسفة هي الحرية، من المناسب استثمار هذه الكلمات ذات المعنى والإلحاح في وقت كان فيه الناس يكافحون من أجل التخلص من قيودهم، ومن أجل مقاومة السلطة التي فقدت كل ادعاء للشرعية، ولبناء مؤسسات اجتماعية أكثر ديمقراطية وأكثر إنسانية"([[33]](#endnote-33))، ومن اللائق "أن يكون الفيلسوف في مثل هذا الوقت مدفوعا أكثر للتحقيق في طبيعة الحرية الإنسانية وحدودها، وربما الاستنتاج مع شيلينغ أن الذات الإنسانية جوهرها هو الحرية، وكرامة الفلسفة تتضمن تحديدا هذه المسألة، إنها تتثبت وتقوم على الحرية الإنسانية"([[34]](#endnote-34))، سار تشومسكي على خطى مفكري الأنوار الذين آمنوا بقدرة العقل الإنساني، وبخيرية الطبيعة البشرية، وما قوله بأن جوهر الطبيعة الإنسانية هو الحرية إلا دليل على تفاؤله اللامحدود بقدرة البشروميلهم الفطري نحو التقدم.

أما بالنسبة لأحكامنا الأخلاقية، فيرى تشومسكي بأن كل منا مزوّد بنظام فكري بشكل وراثي مسؤول عن كل أحكامنا، فالبشر ـ يقول تشومسكي ـ "في الحقيقة أعتقد بأن لديهم درجة عالية جدا من الاتفاق"([[35]](#endnote-35))، فالإنسان ودون إرشاد من أي سلطة إلهية أو بشرية، قادر على التمييز بين الحق والباطل، الخير والشر، وله استعداد فطري لأن يعمل من أجل الصالح العام في مجتمعه، وما علينا إلا الاستنتاج بأن "هذه الموهبة البيولوجية في الواقع تستدعي منا تطوير نظام للحكم الأخلاقي ونظرية العدالة"([[36]](#endnote-36)).

**5**\_ **الخلفية الفوضوية لفكر تشومسكي:**

إن انتقالنا من الحديث عن مفهوم الطبيعة البشرية عند تشومسكي إلى الحديث عن علاقته بالفكر الفوضوي له ما يبرره، فإقرار تشومسكي بأن الحرية تمثل جوهر الطبيعة الإنسانية، وبأن كل الأفراد مرتبطين بإرادة حرّة، أشبه ما تكون غريزة نحو التحرر، يكوّن لنا تصور مبدئي وأساسي لأفكار تشومسكي في السياسة، إضافة إلى أنه لا يمكن الحديث عن السياسة عند تشومسكي دون التطرق للخلفية الفوضوية التي شكّلت أفكاره منذ وقت مبكّر.

قبل التطرق لعلاقة تشومسكي بالفكر الفوضوي، من المنطقي أن نسلّط الضوء على مفهوم الفوضوية، إن الفوضوية Anarchism أو "اللاسلطويةAnarchyهي كلمة قديمة قدم العالم، وقد اُشتقت من كلمتين إغريقيتين قديميتنan و arkhe، وتعني شيئا كغياب السلطة أو الحكومة"([[37]](#endnote-37))، كما تسمى الفوضوية أو اللاسلطوية أو الاناركية، وكلها تحمل معنى غياب السلطة أو الحكومة، هذا بالنسبة للمعنى اللغوي، أما في الاصطلاح فـ"ـإن التنكر للقوانين وعدم الالتزام بها هو جوهر الفوضوية، وفي تطوير لهذا المفهوم السلبي تُصَنف غالبا على أنها إما الفردية أو الاشتراكية، كما أنها تقوم على رفض الدولة، وأن النظام الاجتماعي ممكن في غيابها، والدعوة للتحرك نحو إقامة مجتمع بدون دولة"([[38]](#endnote-38)).

وقد اعترف تشومسكي نفسه بالعودة إلى مؤلفات الفوضوي والنقابي رودولف روكرRudolf Rocker(1873ـ1958)حيث يقول بهذا الصدد: "بدأتُ أتعرف على مؤلفاته في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، في مخازن كتب الفوضوية ومكاتبها في مدينة نيويورك، فكانت كتبه موجودة على الرفوف التي يغطيها الغبار في مكتبة الجامعة، غير معروفة وغير مقروءة، ويعتبر نشر كتاب روكرAnarcho-Syndicalism حدث ذو أهمية كبيرة بالنسبة للأشخاص المهتمين بمشاكل الحرية والعدالة"([[39]](#endnote-39))، فرأى تشومسكي في كتاب روكر فرصة للتفكير على نحو مختلف، "أثّرت أفكار رودولف روكر ومازالت تؤثر على تشومسكي، الكتاب الأساسي لروكر يفتتح بكلمة الفوضوية،فأيّد إلغاء الاحتكارات الاقتصادية، وكافة المؤسسات القسرية الإجبارية السياسية والاجتماعية داخل المجتمع، وأكّد بأن نوع السلطة السياسية تفترض مسبقاً صورة معينة من صور الاستعباد السياسي والبشري"([[40]](#endnote-40))، كان روكرمن المفكرين الذين آمنوا بفكرة مجتمع بشري من دون سلطة، وكل سلطة بنظره هي نوع معين من الاستبداد، فكان لهذا أثر كبير في توجيه أفكار تشومسكي حول السلطة.

تظهر جذور الفكر الفوضوي واضحة في فلسفة تشومسكي من خلال رأيه في موضوع السلطة حيث يقول بأن "أي دور سلطوي يحتاج إلى مبررات"([[41]](#endnote-41))، فكان تشومسكي معجبا كثيرا بأفكار فلهلم فون همبولدتWilhelm von Humboldt(1767ـ1835) الذي يرى أن الدولة "تميل إلى جعل الإنسان أداة لخدمة أغراضها التعسفية، وتتجاهل الأهداف الفردية، فمذهبه كان ليبرالي/ كلاسيكي معارض بشدة حتى لأدنى حدّ من تدخل الدولة في الحياة الخاصة أو الاجتماعية"([[42]](#endnote-42)). ركّز الفوضويون على قيم الفردية والإبداع، وحرية التفكير، وهذا ما نجد أثره في مفهوم الطبيعة البشرية عند تشومسكي الذي أقر بأن الحرية جوهرها، ولدى كل منا ميل فطري نحو التحرر، ورفض كل أنواع الإذعان والتطويع، حيث وصف ميخائيل باكونينMikhailBakunin (1814ـ1876)الحرية على "أنها ليست تلك الحرية التي تمنحها الدولة وتخصصها وتنظمها بلوائح، فهذه أكذوبة خالدة لا تمثل في الواقع شيئا أكثر من امتياز يقوم على العبودية للبقية"([[43]](#endnote-43))، فسبب معاداة الفوضويين لفكرة الدولة والنظر إليها على أنها مصدر كل الشرور هو أنه "في قلب الفوضوية هناك يوتوبية لا تخجل من نفسها، وهي تتعلق بالإيمان بالخيرية الأصيلة أو على الأقل بالقابلية للخيرية في الجنس البشري. ومن هذا المنطلق، ينشأ النظام الاجتماعي بشكل طبيعي وتلقائي، ولا يتطلب ماكينة القانون والنظام"([[44]](#endnote-44))، فسّر تشومسكي هذه القابلية للخيرية بوجود استعداد وراثي كامن فينا يتيح لنا إمكانية تنظيم سلوكنا على نحو فعّال، ومنه عارض تشومسكي مختلف النظم الرأسمالية التي تسمح بجعل البشر عبيدا، وهذا ما يمثل إهانة لطبيعتنا البشرية.

**الخاتمة:**

انطلاقا من قوله بأن جوهر الطبيعة البشرية هو الحرية، دافع تشومسكي طيلة حياته عن حرية البشر، وضرورة توفير بيئة مناسبة لإتاحة فرص الإبداع والتحرر، وهذا ما تعمل الدول الرأسمالية على طمسه، لأنها ترى في الإبداع الفردي تهديدا لسيطرتها، كما على الدول توفير ظروف يمكن للفرد ان يبدع من خلالها، وكثيرا ما "وصف تشومسكي نفسه بأنه اشتراكي تحرري، حيث أنه فضل أن يكون هذا المصطلح أكثر غموضاً فيما يتعلق بمبدأ الفوضوية لكي يميز نفسه عن نسخ اليمينيين أو النسبيين، وبالنسبة لتشومسكي فإن الأدبيات الليبرالية الكلاسيكية مع جذورها في التنوير وتأكيدها على الحرية تعتبر محورية في أي تعريف للاشتراكية التحررية، وبالفعل فإنه يقول بأنه إذا كان يتعين أن يرى الفرد فكرة واحدة سائدة داخل الأدبيات الفوضوية فإن هذا يمكن تعريفه بأنه اشتراكي تحرري لذلك يتعين أن تكون الحرية هي القيمة الأكبر"([[45]](#endnote-45))، وهناك من يصنف تشومسكي كفوضوي، لكن في الحقيقة ان تشومسكي يؤكد ان كل سلطة تحتاج الى تبرير، هذا ما عناه تشومسكي.

لقد حاول تشومسكي من خلال كتاباته القضاء على السلطة اللامشروعة، او التي فقدت شرعيتها بالنسبة إلى شعبها، وكان هذا ما دفعه إلى تشجيع ثورات الربيع العربي، فأيد خروج الشعوب العربية من اجل نيل حرياتها، من منطلق نظريته في الطبيعة البشرية التي يرى من خلالها بأن كل إنسان ولد ليكون حرا، لا ليكون عبدا، ويجب على أي سلطة أن تفتح الباب أمام إبداع الأفراد وتحقيق استقلاليتهم، كما لا يمكن ان تكون السلطة واسطة لتحقيق حرية الأفراد، بل عليها فقط أن تهيئ لهم الظروف المناسبة لذلك.

لكن ما يؤخذ على تشومسكي هو مغالاته في إقحام دور الولايات المتحدة في حدوث أي شيء في العالم، حتى أصبح وكأنه يخيف العالم من شيء اسمه الولايات المتحدة، فبدا وكأنه يمارس نوع من الترهيب من دولة الولايات المتحدة، وهذا ما يخدم السياسة الخارجية الأمريكية في كثير من الحالات.

هذا، وإن اعتباره بأن للبشر قابلية للخيرية تكمن في ميلهم الطبيعي لبناء مجتمعاتهم بشكل فعال أمر لا يمكن تقبله، فكما للبشر ميل لفعل الخير، لهم أيضا ميل نحو التدمير وفعل الشر، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تقبل هذه الأفكار الطوباوية لمفكر لازال أسير أفكار التنوير.

لازال تشومسكي يؤمن بالأفكار المثالية البعيدة عن الواقع، فإن كان فعلا يرغب في إحداث تغيير في المجتمعات، كان لابد عليه من إيجاد شروط للتغيير تكون واقعية، تأخذ في الحسبان طبيعة البشر التي تشمل جميع ميولاتهم، فإن كان للبشر ميل طبيعي للخير والصالح العام، وللتعاون، ولديهم نزوع نحو التحرر، فكيف نفسر وجود الشر والحروب والدمار في العالم؟.

ورغم ما يؤخذ عن مفكرنا تشومسكي، يبقى من الضروري لنا كشعوب عربية الاطلاع على تحليلاته السياسية، فههو غالبا من كان ضمير الشعوب المغلوب على امرها، وغالبا ما كان مفكرا مناصرا لقضايانا التي تحتاج اليوم واكثر من أي وقت مضى الى وعي الشعوب، وإدراكها لواقعها، من اجل التمهيد لطموحاتها في الحرية والحياة الديمقراطية.

1. ـ علي حرب: ثورات القوة الناعمة في العالم العربي، من المنظومة الى الشبكة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط2، 2012، ص ص 25ـ26 [↑](#endnote-ref-1)
2. ـ جون آر برادلي: ما بعد الربيع العربي، كيف اختطف الاسلاميون ثورات الشرق الاوسط، ترجمة: شيماء عبد الحكيم طه، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 2013، ص 23 [↑](#endnote-ref-2)
3. ـ نزيه أيوبي: الاسلام السياسي وآفاق الديمقراطية في العالم الاسلامي، مركز طارق بن زياد للدراسات والابحاث، الرباط، ط1، 2000، ص 76 [↑](#endnote-ref-3)
4. ـ المرجع نفسه، ص 47 [↑](#endnote-ref-4)
5. ـ علي حرب: ثورات القوة الناعمة في العالم العربي، من المنظومة الى الشبكة، ص 201 [↑](#endnote-ref-5)
6. ـ المرجع نفسه، ص 204 [↑](#endnote-ref-6)
7. ـ نعوم تشومسكي: قوى وافاق، تأملات في الطبيعة الانسانية والنظام الاجتماعي، ترجمة: ياسين الحاج صالح، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 1998، ص ص 128ـ129 [↑](#endnote-ref-7)
8. ـNoam Chomsky : Ocuupy, Penguim Books, LTD, 2012 p 62 [↑](#endnote-ref-8)
9. ـ أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، (H-Q)، ترجمة: خليل احمد خليل، منشورات عويدات، بيروت\_باريس، دط، دت، ص 726 [↑](#endnote-ref-9)
10. ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها [↑](#endnote-ref-10)
11. ـ أشرف منصور: الليبرالية الجديدة، جذورها الفكرية وابعادها الاقتصادية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 2008، ص 68 [↑](#endnote-ref-11)
12. ـ المرجع نفسه، ص 69 [↑](#endnote-ref-12)
13. ـ روبرت دبليو مكتشينسي: من مقدمته لكتاب تشومسكي: الربح على حساب الشعوب، ترجمة: أسامة إسبر، بدايات، دمشق، ط1، 2007، ص 5 [↑](#endnote-ref-13)
14. ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها [↑](#endnote-ref-14)
15. ـ Noam Chomsky : Ocuupy, p58 [↑](#endnote-ref-15)
16. ـIbid, p 59 [↑](#endnote-ref-16)
17. ـ نعوم تشومسكي: الربح على حساب الشعوب، الليبرالية الجديدة والنظام الكوكبي، ترجمة: أسامة إسبر، بدايات، دمشق، ط1، 2007، ص 17 [↑](#endnote-ref-17)
18. ـ المصدر نفسه، ص ص 17ـ18 [↑](#endnote-ref-18)
19. ـ نعوم تشومسكي: أسرار وأكاذيب وديمقراطية، ترجمة: سركون برخو، دار الينابيع طباعة، نشر، توزيع، دمشق، ط1، 2007، ص 86 [↑](#endnote-ref-19)
20. ـ المصدر نفسه، ص 90 [↑](#endnote-ref-20)
21. ـ ياسر قنصوه: نقد الخطاب السياسي الامريكي، قراءة في فكر نعوم تشومسكي، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع بطنطا، دط، 2000، ص 18 [↑](#endnote-ref-21)
22. ـ نعوم تشومسكي: الربح على حساب الشعوب، الليبرالية الجديدة والنظام الكوكبي، ص 79 [↑](#endnote-ref-22)
23. ـ نعوم تشومسكي: أوهام الشرق الاوسط، تعريب: شيرين فهمي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط2، 2006، ص 8 [↑](#endnote-ref-23)
24. ـ نعوم تشومسكي : صناعة المستقبل، الاحتلال، التدخلات، الامبراطورية والمقاومة، ترجمة: Lingo Office s.a.r.l، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص 233 [↑](#endnote-ref-24)
25. ـ توماس جيفرسن: الديمقراطية الثورية، كيف بنيت امريكا جمهورية الحرية...، ترجمة: منيرة سليمان\_وليد الحمامصي، دار الساقي، بيروت، لندن، ط1، 2011، ص 30 [↑](#endnote-ref-25)
26. ـ نعوم تشومسكي : صناعة المستقبل، الاحتلال، التدخلات، الامبراطورية والمقاومة، ص 233 [↑](#endnote-ref-26)
27. ـ وليام بلوم: ضمن كتاب الولايات المتحدة، الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديمقراطية، ترجمة: نور الاسعد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص ص 225ـ229 [↑](#endnote-ref-27)
28. ـ نعوم تشومسكي : صناعة المستقبل، الاحتلال، التدخلات، الامبراطورية والمقاومة، ص 234 [↑](#endnote-ref-28)
29. ـ نعوم تشومسكي، جلبير الاشقر: السلطان الخطير، السياسة الخارجية الامريكية في الشرق الاوسط، ترجمة: ربيع وهبه، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 54 [↑](#endnote-ref-29)
30. ـ نعوم تشومسكي: السيطرة على الاعلام، الانجازات الهائلة للبروباغاندا، ترجمة: أميمة عبد اللطيف، دار الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2003، ص 7 [↑](#endnote-ref-30)
31. ـ نعوم تشومسكي: أشياء لن تسمع بها أبدا، ترجمة: أسعد الحسين، دار نينوى، دمشق، دط، 2010، ص ص 65ـ66 [↑](#endnote-ref-31)
32. ـJames McGilvray : The Cambridge Companion To Chomsky, Cambridge UniversityPress, 2007, pp 241-242 [↑](#endnote-ref-32)
33. ـNoam Chomsky : Language and Freedom, essaypresented as a lecture at the UniversityFreedom and The HumanScienses Symposium, Loyola University, Chicago, January, 8-9, 1970, Producedwith permission from The Chomsky Reader, Ed,  James Peck, 1987, p 140 [↑](#endnote-ref-33)
34. ـIbid, pp 140-141 [↑](#endnote-ref-34)
35. ـ نعوم تشومسكي: أشياء لن تسمع بها أبدا، ص 67 [↑](#endnote-ref-35)
36. ـNeil Smith : Chomsky, Ideas and Ideals, Cambridge UniversityPress, Second Edition, 2004, p 181 [↑](#endnote-ref-36)
37. ـ دانييل غورين: اللاسلطوية من النظرية إلى التطبيق، تقديم نعوم تشومسكي، ترجمة: مزاحم الطائي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ط1، دت، ص 37 [↑](#endnote-ref-37)
38. ـWilliam Outhwaite : The BlackwellDictionary of Modern Social Thought, BlackwellPublishing, LTD, Second Edition, 2006, p 12 [↑](#endnote-ref-38)
39. ـNoam Chomsky : Preface to the book of Rudolf Rocker Anarcho-Syndicalism, PlutoPress, British Library, 1989, p VI [↑](#endnote-ref-39)
40. ـNeil Smith : Chomsky, Ideas and Ideals, pp 185-186 [↑](#endnote-ref-40)
41. ـ نعوم تشومسكي: أسرار وأكاذيب وديمقراطية: ترجمة سركون برخو، دار الينابيع، سوريا، ط1، 2007، ص 140 [↑](#endnote-ref-41)
42. ـ Noam Chomsky : Language and Freedom, p 150 [↑](#endnote-ref-42)
43. ـNoam Chomsky : Notes On Anarchism, The Anarchist Library, 1970, p 6 [↑](#endnote-ref-43)
44. ـ أندرو هيود: مدخل إلى الأيديولوجيات السياسية، ترجمة: محمد صفار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2012، ص 222 [↑](#endnote-ref-44)
45. Alison Edgley : Chomsky’s Political Critique, Essensialism and Political Theory , in: Contemporary Political Theory, 2005, 04, p 135 [↑](#endnote-ref-45)